لكم فى رسول الله أسوة حسنة

جاء فى سورة الأحزاب ، عن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، قوله تعالى : ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ فالمصطفى صلى الله عليه وسلم ، هو الأسوة الحسنة للمسلمين جميعا . فما هى العوامل التى جعلت فى الإمكان اتخاذ شخصيته المصطفى صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ؟ ولماذا انفردت شخصية عليه الصلاة والسلام بين كل الأنبياء والمرسلين ، بهذه الميزة ؟ ثمة عوامل وراء هذه الإمكان والانفراد ، منها ما يلى :

أولا : بين القرآن الكريم الكثير من جوانب شخصية المصطفى صلى الله عليه وسلم . وقد تكفل رب العزة بحفظ هذا الكتاب العزيز ، قال تعالى (١) : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وفى ذلك حفظ ضمنى لسير المصطفى صلى الله عليه وسلم .

ثانيا : السنة النبوية المطهرة ، والمراد بها أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته وصفاته فصلت ما أجمل القرآن الكريم ، ووضحت غامضه ، وبينت مبهمه ، وقد قال عز من قائل (٢) : ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم

---

(١) سورة الحجر : ٩ .

(٢) سورة النحل : ٤٢ .

﴿ولعلهم يتفكرون﴾ ومن مظاهر إعجاز القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى: ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ أن العناية الإلهية قد هيأت كل الأسباب التى تتحقق عن طريقها أسوة المصطفى صلى الله عليه وسلم للمسلمين ، بحيث إنك حينما تتدبر هذه الأسباب ونتائجها ، تنتهى حتما ، إلى أن ثمة سيرة واحدة فقط فى هذه الدنيا ، التى يمكن فعلا اتخاذها أسوة حسنة ، إنها سيرة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . فسيرته عليه الصلاة والسلام هى الوحيدة الكاملة ، لأنها تغطى كل حياته عليه الصلاة والسلام التأريخية ، لأن وقائع التأريخ تنطق بما نطقت به ، العملية لأنها سيرة عملية العلمية لأن مادتها العلمية قد خضعت لنقد وتمحيص شديدين ، وبدرجة أذهلت الدنيا . فعلم مصطلح الحديث وهو أحد ثمارها الشهية ، فمن لم تعرف الإنسانية قبل ولا بعد نظيرا له فى نقد الرجال والمتون .

ومما ساعد على جعل هذه السيرة فريدة فى بابها ، كونه عليه عليه الصلاة والسلام قد انفرد بين رسل الله تعالى ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، بأن أول من آمن به هم أهله وأقاربه وذووه . ثم إنه صلى الله عليه وسلم قد أذن لكل عباد الله تعالى أن يرووا عنه كل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال وأحوال . وبهذا يتبين أن سيرته صلى الله عليه وسلم تتميز بأن ظاهرها كباطنها . ويكفى أن يقال فى

حق امتياز هذه السيرة العطرة ، بأن زهاء ثلث هذا الدين ، إنما وصل عن طريق أزواج المصطفى صلى الله عليه وسلم . ولعلك سمعت عن الصحيفة الصادقة التى دون فيها عبد الله بن عمرو بن العاص ، كل ما سمعه منه صلى الله عليه وسلم ، بإذن منه بل بأمر منه ، وهى تتألف من زهاء ألف حديث . ولعلك علمت عن مدى اهتمام الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، بكل ما له علاقة به صلى الله عليه وسلم وحبهم له ، للدرجة التى لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه (١) ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه . ولعلك سمعت على سبيل المثال عن الإمام البخارى الذى جمع الصحيح ، وفيه زهاء أربعة آلاف حديث بعد حذف المكرر ، جمعه رحمه الله تعالى فى ست عشرة سنة من بين ستمائة ألف حديث منسوبة إليه صلى الله عليه وسلم .

ومن عجيب كمال هذه السيرة العطرة ، أن كل إنسان فى هذا الوجود ، مهما كان ميدان عمله ، يستطيع أن يتخذ من هذا الرسول الكريم الأسوة الحسنة . ومهما كان جهد هذا الإنسان أو طاقته . فإنه كله رضا وسعادة ، فى أن يوفقه الله تعالى ، كى يحاكى إلى مدى ، شخصية الرسول الكريم ، فى ذلك الجانب المعين من جوانب شخصيته صلى الله عليه وسلم ، التى لا يكاد يأتى ، الحصر على جوانبها . وأن ميدان عملك واجتهادك مهما كان ،

---

(١) الوضوء ، بفتح الواو الماء الذى يتوضأ به .

فإنك تستطيع أن تتخذ من هذا الرسول الكريم أسوتك الحسنة ، سواء كنت زوجاً ، أو أباً أو جداً ، أو كبير أسرة ، أو رئيساً ، أو مرءوساً ، غنياً أو فقيراً ، أو قاضياً . سواء كنت عابداً ، مصلياً أو مزكياً أو متصدقاً أو صائماً أو حاجاً إلى بيت الله تعالى أو معتمراً . سواء كنت مجاهداً فى سبيل الله تعالى ، منتصراً كما فى بدر وفتح مكة أو منهزماً — لا سمح الله — كأحد وحنين ، مبرم عقود وعهود ، بين أوليائك ، أو اندس بينهم خصومك ، إلى آخر ذلك . إنك تستطيع أن تكون من شئت ، وستتبين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو أسوتك الحسنة ، فى ذلك الفرع الضيق الذى تخصصت فيه ، وكلك رضا وسعادة ، بل أمل ورجاء ، وأنت تبذل جهدك ، ومنتهى طاقتك ، أن يوفقك الله تعالى ، كى تتمكن فى حدود الممكن ، من محاكاة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فى هذا الفرع الضيق ، من جوانب حياته صلى الله عليه وسلم ، وستتبين بما لا مجال فيه للمناقشة ، أن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فى كل جانب من الجوانب المتعددة للشخصية التى تتخصص فيه طائفة من طوائف البشر ، يعتبر القمة التى تتفاوت طاقات البشر ، فى قطع بعض مسافات سفوحها .

وكى يثبت بما لا يدع مجالا للشك ، كون سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم السيرة الوحيدة فى الدنيا التى يصح أن تتخذ أسوة حسنة فى إمكاننا أن تتحول إلى أشهر رسل الله تعالى السابقين ~~ليسالة~~ رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ، ذاكم هو عيسى ابن مريم عليه الصلاة

والسلام . لقد جاء في دائرة المعارف البريطانية في طبعتها الرابعة عشرة ، بأن كل ما يعرف عن عيسى عليه الصلاة والسلام ، يتعلق بالخمسين يوماً الأخيرة فقط ، من حياته عليه الصلاة والسلام . وجاء في دائرة المعارف البريطانية طبعة عام ١٩٧٥ م ما ترجمته : إنه من الصعوبة بمكان أن تكتب عن عيسى سيرة يطمأن إلى صحتها وأنه ليس شيء من المصادر المتعلقة بحياته وعمله ما يمكن تتبع سنده إلى عيسى نفسه . أنه لم يترك كلمة واحدة مكتوبة أ . هـ . وهذا هو النص الأصلي :

" It is difficult to write with certainty on authentic life of Jeaua ..... None of the sources of his life and work can be traced to Jesus himself, he did not leave a a single known written word".

ثم إنه عليه الصلاة والسلام كان متخصصاً في الروحانيات . ومعروف أن الحياة روح ومادة معاً . ثم إن أتباعه عليه الصلاة والسلام قد غالوا فيه للدرجة التي جعلوه معها إلهاً : ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ وفي هذا الغلو إبعاد لشخصية عيسى عليه السلام عن إمكان اتخاذها أسوة حسنة .

وبهذا يتبين أن ثمة شخصية واحدة في الدنيا هي التي يمكن اتخاذها أسوة حسنة لكل عباد الله ، وأنه على صفوح عظمته صلى

الله عليه وسلم تتساقط منتهى العظات . فعلى المسلمين أن يقدروا هذه النعمة حق قدرها ، وأن يشكروا الله تعالى بأن يطيعوه جل وعلا ويطيعوا رسوله الكريم . قال عز من قائل : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ .

المصطفى صلى الله عليه وسلم سراج منير

بتأملنا للآيتين الكريمتين ، الخامسة والأربعين والسادسة والأربعين من سورة الأحزاب المدنية الكريمة ، قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ يتبين أن الآيتين الكريمتين قد خلعتا على المصطفى صلى الله عليه وسلم إضافة إلى نعمتي النبوة والرسالة ، ستا من الأسماء أو الصفات . فهو صلى الله عليه وسلم الشاهد على أمته ، والمبشر للمؤمنين ، والنذير للكافرين ، وهو الداعي إلى الله تعالى بإذنه ، وهو السراج ، وهو المنير . ونحن نود أن نتدبر الآية الكريمة الثانية على جهة الخصوص ، حيث إنا نتبين علاقة وثيقة بينها ، قال تعالى : ﴿ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ وبين الآية الكريمة الحادية والعشرين في السورة ، وهي التي تبين أنه صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة . قال تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ فما الذي يلاحظ على القول في حقه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وسراجاً منيراً ﴾ ؟ كي تكون الملاحظة واضحة ، نحن بحاجة إلى أن نبين أن القرآن الكريم ، الذي نزل بلسان عربي مبين ، قد راعى طرائق العرب في تعبيرها . فإذا وصف العرب مثلا اللون الشديد الصفرة بأنه فاقع ، فإنه يجيء في القرآن الكريم ، في وصف بقرة

بنى إسرائيل ، قوله تعالى(١) : ﴿ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴾ ومن هذا القبيل ما يتصل بالشمس والقمر . فبما أن الشمس مصدر أساسى للطاقة ، لذا أطلق القرآن الكريم عليها لفظة « سراج » وأطلق على ما يتولد من هذا المصدر لفظة « ضياء » كما وصفها بكونها ﴿ سراجاً وهاجاً ﴾ أى متقداً . وبما أن القمر ليس مصدراً للطاقة أو الحرارة ، وكان دوره بمثابة المرآة العاكسة لضوء الشمس ، فقد أطلق عليه وعلى ما يرتبط به من الألفاظ ما يوحى بطبيعته وبدوره فهو منير ، وليس مضيئاً . والذى يصدر منه نور ، وليس ضياء . وكل ذلك قد جاء وفق طرائق العرب فى التعبير . جاء فى سورة يونس(٢) قوله تعالى : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ وفى سورة نوح (٣) قوله : ﴿ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ وفى سورة الفرقان (٤) قوله : ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ﴾ وفى سورة النبأ (٥) قوله : ﴿ وجعلنا سراجاً وهاجاً ﴾ .

---

(١) سورة البقرة : ٦٩ .
(٢) الآية ٥ .
(٣) الآية ١٦ .
(٤) الآية ٦١ .
(٥) الآية : ١٣ .

إن الشمس وهى نجم متوقد ومصدر للحرارة يطلق عليه لفظ السراج ، ويوصف بالوهاج ، ويطلق على ما يصدر عنه لفظ الضياء . وإن القمر وهو كوكب غير متوقد ، وغير مصدر للحرارة يرتبط به لفظ النور ، دليلا على الدور الذى يقوم به القمر حينما يعكس كالمرآة ضياء الشمس نوراً .

فإذا تحولنا إلى وصف الآية الكريمة له صلى الله عليه وسلم ، تبينا أن الآية الكريمة تنزله صلى الله عليه وسلم منزلة السراج ، أى الشمس وتصف هذا السراج بالوصف « منيراً » وهو الوصف المرتبط بالقمر أساساً . فأين يكمن إعجاز الآية الكريمة ، مظهراً من مظاهر فضل الله تعالى العظيم ، على هذا الرسول الكريم ؟

لقد تبينا أن الآية الكريمة لا يجىء فيها القول : « وسراجاً مضيئاً » ، ولكن ﴿ وسراجاً منيراً ﴾ ومن الجائز أن نقول ، فى محاولة تبيين الحكمة من هذا القول ، ومظهر إعجازه : إن الشمس التى يطلق عليها لفظ السراج لضوئها الوهاج ، لا يستطيع مخلوق واحد فوق الكرة الأرضية أن يحدق فيها ، بينما يستطيع كل مخلوق أن يحدق فى القمر ، لأنه ليس مصدر إشعاع ، ولأن نوره مستمد من ضوء الشمس . وكأن الآية الكريمة بذلك تجمع للمصطفى صلى الله عليه وسلم خير ما فى كل من الشمس والقمر ، من أجل تحقيق النفع من النبى صلى الله عليه وسلم ، الأسوة الحسنة ، إن رب العزة ينزله صلى الله عليه وسلم ، وهو الأسوة الحسنة ، منزلة الشمس ، مصدر

الضوء الذى لا يستغنى عنه مخلوق واحد فوق هذه الكرة الأرضية ..
إنه صلى الله عليه وسلم بمثابة الشمس للأبدان . ويعرف هذه الحقيقة وقيمتها جيداً ، من حرم نعمة الشمس ، لسبب من الأسباب .. ولهذا قيل عنه صلى الله عليه وسلم « وسراجاً » وإن رب العزة لينزل ضوءه صلى الله عليه وسلم منزلة نور القمر ، الذى يتحقق منه النفع لكل عباد الله تعالى ، والذى لا يرتبط بنوره أذى مطلقاً ..
إن هذه هى طبيعة سراج المصطفى صلى الله عليه وسلم المنير ..
إنه من حيث القوة والانتشار الواسع المدى ، بمثابة ضوء الشمس.
وإنه من حيث عموم النفع وانتفاء الأذى بمثابة نور القمر . قال تعالى (١) :

﴿يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً * وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً * ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾ .

---

(١) سورة الأحزاب ٤٥ — ٤٨ .

يا أيها الرسول يا أيها النبي

خص الله سبحانه وتعالى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بمجموعة من الخصائص ، لم يشاركه فيها صلى الله عليه وسلم أحد من الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ومن هذه الخصائص أن كل رسل الله تعالى وأنبيائه الآخرين ، إنما يخاطبون فى القرآن الكريم بأسمائهم فيقال : يانوح ، ياإبراهيم ، ياموسى ، ياعيسى ، يازكريا ، يايحيى ، ياداود ، فى مثل قوله تعالى(١) : ﴿ قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ﴾ وقوله (٢) : ﴿ وناديناه أن يا إبراهيم * وقد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾ وقوله (٣) : ﴿ قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ وقوله (٤) : ﴿ وإن قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ﴾ وقوله (٥) : ﴿ يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً ﴾ وقوله (٦) : ﴿ يايحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ وقوله (٧) : ﴿ ياداود إنا

---

(١) سورة هود : ٤٨ .
(٢) سورة الصافات : ١٠٤ ، ١٠٥ .
(٣) سورة الأعراف : ١٤٤ .
(٤) سورة المائدة : ١١٦ .
(٥) سورة مريم : ٧ .
(٦) سورة مريم : ١٢ .
(٧) سورة ص : ٢٦ .

جعلناك خليفة فى الأرض﴾ . فإذا تحولنا إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، تبينا أن خطاب رب العزة له وإشارته إليه فى غير معرض التعريف به والإعلام بكونه نبياً ورسولا — إنما يتم عن طريق وصفه بأهم صفاته ، وأكبر نعم الله تعالى عليه ، ألا وهى نعمة النبوة ونعمة الرسالة . .

لقد خوطب صلى الله عليه وسلم فى موضعين فى القرآن الكريم بكونه الرسول وذلك فى قوله تعالى (١) : ﴿يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا . .﴾ وقوله (٢) : ﴿يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ وفيما عدا هذين الموضعين يخاطب صلى الله عليه وسلم بكونه النبى ، فى مثل قوله تعالى فى أول سورة الأحزاب : ﴿ يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيما ﴾ .

وتبدو على الحقيقة قيمة مثل هذا الخطاب الذى اختص به صلى الله عليه وسلم فى مطلع السورة وفى أثنائها وفى العديد من المواضع فى القرآن حينما نتبين أن الآية الكريمة الأربعين من سورة الأحزاب تنص على كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين .

---

(١) سورة المائدة : ٤٠ .

(٢) سورة المائدة : ٦٧ .

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ وهذه الآية الكريمة قد أوصدت إلى يوم القيامة الباب أمام مدعى النبوة . ومعروف أن درجة النبوة ضرورية فى طريق درجة الرسالة ، لأن درجة الرسالة أعلى درجات فضل الله تعالى على المصطفين من عباده جل وعلا ، يليها درجة النبوة التى تعتبر وحدها الطريق المؤدى إلى الرسالة . وحينما يوصد إلى يوم القيامة باب النبوة ؛ فذلك معناه بالضرورة إيصاد الباب أمام كل مدع للرسالة ، إذ المعروف أن كل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولا .

ومما خص به صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم ، أنه لا يشار إليه باعتباره النبى والرسول فقط ، بل لا يشار إليه باعتباره فقط من أولى العزم من الرسل الخمسة ، وهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ابن مريم ، ومحمد ، صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين ، وهؤلاء أصحاب الشرائع والكتب وأولو العزم من الرسل وأئمة الأمم(١) ، إنما باعتبار محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أشرف الأنبياء والمرسلين وأشدهم عزماً . إن الآية الكريمة السابعة من سورة الأحزاب تشير إلى أخذ الله تعالى الميثاق من الأنبياء جميعاً ، وفيهم أولو العزم من الرسل . ثم تنص على أولى العزم منهم على جهة الخصوص ، وذلك من باب عطف الخاص

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٠٩ .

على العام (١) ولكنها ، دليلا على منزلة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم المتميزة عند بارئه ، تبدأ به صلى الله عليه وسلم ، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين ثم يتحول السياق بعد ذلك إلى أول الرسل فالتالين له زمناً . قال تعالى (٢) : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليما ﴾ .

وإن للجمع بين أول الرسل وآخرهم وراء ذلك مغزى عميقاً ، نستطيع أن ندركه حينما نتبين أن نوحاً عليه السلام من الرسل بمنزلة الرائد لهم ، لأنه أولهم . وللريادة تبعاتها وقيمتها كما هو معروف . فإذا كان لابتداء الانطلاقة معناه ومغزاه ، وذلك هو الدور الذى قام به نوح عليه السلام ، فإن الوصول بتلك الانطلاقة إلى منتهى مداها ، وذلك هو الدور الذى قام به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، له معناه ومغزاه كذلك . وكأن السياق يقرر بالجمع بين هذين الرسولين الكريمين ، فضل كل من وضع الأسس والقواعد ، ومن إكمال البناء على أكمل وجه وأحسن حال . روى قتادة عن الحسن عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ﴾ قال : كنت أولهم فى الخلق وآخرهم فى البعث (٣) .

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣/٤٦٩ .

(٢) سورة الأحزاب ٧ ، ٨ .

(٣) تفسير القرطبى : ص ٥٢٠٩ .

الله وملائكته يصلون على النبي

مما خص به صلى الله عليه وسلم ونصت عليه سورة الأحزاب الكريمة ، أن الله تعالى وملائكته الكرام يصلون على النبي ، فعلى المؤمنين ، بأمر ربهم جل وعلا ، أن يصلوا عليه ويسلموا تسليماً . قال تعالى (١) : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ والصلاة من الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم الثناء والرحمة . والصلاة من الملائكة عليه صلى الله عليه وسلم الدعاء والتبريك والاستغفار قال البخاري . قال أبو العالية : «صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة . وصلاة الملائكة الدعاء ، وقال ابن عباس : يصلون يبركون » (٢) . قال أبو عيسى الترمذي وروى عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم قالوا : صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار (٣).

ويلاحظ أنه فيما يتصل بالمخاطبين في الآية الكريمة ، المطلوب منهم إضافة إلى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أن يسلموا تسليما . فليس ثمة اكتفاء بالصلاة بشأن عباد الله تعالى . ثم إن جملة سلموا تؤكد بالمصدر « تسليما » مما هو دليل على كونه سلاماً يليق بمنزلته صلى الله عليه وسلم ، وخاصة وقد عرفنا طبيعة الصلاة المطلوبة وأنها منه جل وعلا ومن ملائكته الكرام .

---

(١) سورة الأحزاب : ٥٦ .

(٢) تفسير ابن كثير : ٣/٥٠٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٥٠٦ .

والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده فى الملأ الأعلى ، بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلى عليه ، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعاً (١) .

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه (٢) عن كعب ابن عجرة رضى الله عنه قيل: يارسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة ؟ قال قولوا : «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»(٣) ومعنى قولهم : أما السلام عليك فقد عرفناه ، هو الذى فى التشهد الذى كان يعلمهم إياه كما كان يعلمهم السورة من القرآن . وفيه : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته (٤) ، روى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى . . . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من صلى

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٥٠٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٥٠٧ .
(٣) صحيح البخارى ٦/١٥١ وانظر تفسير القرطبى ص : ٥٣١٥ .
(٤) تفسير ابن كثير : ٣/٥٠٧ .

على واحدة صلى الله عليه بها عشرا» . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (١) قال الإمام أحمد . . . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصل على » وقال أبو سعيد فلم يصل على (٢) قال الترمذى . . عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على . رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له . ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة » ثم قال : حسن غريب . قلت : وقد رواه البخارى فى الأدب (٣) .

وإن هذا الفضل الكبير من الله تعالى على رسوله الكريم ، يذكرنا بفضل الله تعالى الكبير كذلك على اتباع هذا الرسول الكريم ، حيث إن الله تعالى وملائكته يصلون على المؤمنين . قال تعالى (٤) : ﴿ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا * هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما * تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً﴾ . قال ابن عباس لما نزل : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى ﴾ قال المهاجرون والأنصار . هذا لك يارسول الله خاصة .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٥١١ وانظر تفسير القرطبى ص ٥٣١٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٥١٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣/٥١٢ .
(٤) سورة الأحزاب : ٤١ — ٤٤ .

وليس لنا فيه شيء فأنزل الله هذه الآية (١) وعن مجاهد قال : لما نزلت: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ قال أبو بكر : يارسول الله : ما أنزل الله عليك خيراً إلا أشركنا فيه فنزلت : ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾(٢) والصلاة من الله تعالى الرحمة(٣) الذي يؤيد هذا الرأى التذييل الذى نص فيه على رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين: ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ وقيل : الثناء على العبد عند الملائكة . يقول ابن كثير مثلا (٤) : « والصلاة من الله تعالى ثناؤه على العبد عند الملائكة » حكاه البخارى .. وقال غيره: «الصلاة من الله عز وجل الرحمة . وقد يقال : لامنافاة بين القولين والله أعلم » .

ومعنى الصلاة من الملائكة الدعاء للناس والاستغفار (٥) كقوله تبارك وتعالى (٦) : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم *

---

(١) تفسير القرطبى ص : ٥٢٨٠ .

(٢) لباب النقول ١٧٥ وانظر الكشاف ٢/٥٤٢ .

(٣) لسان العرب صلا ، وتفسير القرطبي ص : ٥٢٨٠ وتفسير ابن كثير ٣/٤٩٥ .

(٤) تفسير ابن كثير ٣/٤٩٥ والشفا للقاضى عياض : ١/٤٨ .

(٥) سورة غافر : ٧ — ٩ .

وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ وكقوله تبارك وتعالى (١) : ﴿تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ .

ويلاحظ أن الصلاة التى استحقها المؤمنون من الله تعالى ومن ملائكته الكرام كفاء ذكرهم لله تعالى كثيراً وتسبيحه جل وعلا بكرة وأصيلا ، أى فى كل الأوقات وكل الأحوال . والمعروف أن ذكر الله تعالى هو العبادة الوحيدة التى لم يضع الشارع الحكيم حداً لنهايتها ، لإمكان تحقق الكثير من الذكر على ألسنة عباد الله تعالى ، فى كل أحوالهم قائمين وقاعدين ومضطجعين وما إلى ذلك . وفى كل الأوقات قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ، وسبحوه بكرة وأصيلا هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ وقال تعالى : ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ .

---

(١) سورة الشورى : ٥ .

موجـــــز آراء الكتاب

﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ هو عنوان الكتاب المستقى من الآية الكريمة الأربعين من سورة الأحزاب . قال تعالى : ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً﴾ وثمة قضيتان رئيسيتان عرض لهما العنوان وهما :

(أ) محمد ليس أبا أحد من رجال المؤمنين .

(ب) محمد رسول الله وخاتم النبيين .

وفيما يتصل بالقضية الأولى ، بينت الكتاب أن سورة الأحزاب قد قضت على ظاهرة التبني نظرياً وعملياً ، نظرياً فى الآيتين الكريمتين الرابعة والخامسة قال تعالى : ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم ابناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل * ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما﴾ وعملياً فى زواجه صلى الله عليه وسلم من مطلقة متبناه ومولاه زيد ابن حارثة بعد انقضاء عدتها . وهذا الموضع تشمله الآيات الكريمات من السادسة والثلاثين إلى الأربعين .

وبشأن الجانب النظرى ، وطأ للقضاء على ظاهرة التبنى وتبيين وجه الحق فيها ، بتبيين وجه الحق فى أمرين آخرين . ويتضح من تأمل الأمور الثلاثة من حيث الخطورة والأهمية أنها تتجه صعداً .. الأمر الأول الزعم بأن من عباد الله تعالى من له قلبان اثنان . والأمر الثانى الزعم بأن الزوجة تتحول بالظهار أماً فى الحرمة . والأمر الثالث الزعم بأن الولد المتبنى ابناً من الصلب أو كالابن من الصلب . وبما أن الأمر الثالث أكبر الأمور الثلاثة وأشدها تغلغلا فى صميم المجتمع العربى ، لذا كانت العناية به فى السورة الكريمة أكبر ، حيث قد تمت العودة إليه فى الجانب العملى من المعالجة .

كان زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه مولى النبى صلى الله عليه وسلم ومتبناه قبل النبوة فكان يقال له زيد بن محمد ، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة ، ويبين وجه الحق بشأن هذه القضية .

وبعد أن نسخت العناية الإلهية حكم الجاهلية بشأن ظاهرة التبنى شاءت العناية الإلهية تأكيداً للقضاء على هذه العادة ، أن يردف العمل بالقول . وكان ذلك فى تزويج رب العزة حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش ، مطلقة متبناه زيد ابن حارثة . وهذه هى آيات الموضع الثانى العملى . قال تعالى : ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم

الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً * وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا * ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً * الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ، وكفى بالله حسيباً * ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾ .

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن تجعل من شخص المصطفى صلى الله عليه وسلم الشخصية التى يتم بواسطتها القضاء عملياً على ظاهرة التبنى، فأوحى الله تعالى إلى نبيه أن يخطب زينب بنت جحش على مولاه زيد ابن حارثة . لقد ظنت زينب أول الأمر أن الرسول صلى الله عليه وسلم يريدها لنفسه ففرحت ، وحينما علمت أنه يريدها لمولاه ومتبناه سابقاً زيد بن حارثة استنكفت أول الأمر ثم رضيت امتثالا لما أوحى الله تعالى إلى حبيبه صلى الله عليه وسلم فى هذا الشأن . قال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً ﴾ .

وبعد ما يزيد على العام الواحد من العشرة الزوجية غير الموفقة ، رغب زيد فى فراق زينب ، وما كان ليقدم على هذه الخطوة ، دون إعلام المصطفى صلى الله عليه وسلم ، الذى كان بفضل الله تعالى السبب فى قبول زينب الزواج من زيد . وقد أوحى الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن زيداً سيطلق زينب ، وأنها إكراماً من الله تعالى لها كفاء رضاها بقضاء الله تعالى وقضاء رسوله الكريم ، أن تتزوج من زيد بن حارثه ستكون إحدى أمهات المؤمنين . فماذا قال المصطفى صلى الله عليه وسلم الرءوف الرحيم لزيد ؟ قال تعالى : ﴿وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله﴾ فالمصطفى صلى الله عليه وسلم يقول لزيد الذى أنعم الله تعالى عليه بنعمة الإيمان ، وأنعم عليه صلى الله عليه وسلم بنعمة الحرية ، أمسك عليك زوجك واتق الله . لقد أخفى المصطفى صلى الله عليه وسلم فى نفسه ما أوحى الله تعالى به إليه من كون زينب ستكون إحدى زوجاته صلى الله عليه وسلم ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان على علم بأن هذا النوع من الوحى الخاص به صلى الله عليه وسلم ، والذى أخفاه ، سيظهر حينما يتزوج هو بإرادة الله تعالى وأمره من زينب بنت جحش مطلقة زيد . ولأنه عليه الصلاة والسلام كان يخشى أعداء الإسلام الذين طالت ألسنتهم فى تلك الأوقات بخاصة ، بأن يقولوا : تزوج مطلقة زيد ، مع علمهم بأن زيداً من صلب رجل آخر . وقد عاتب رب العزة حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم على خشيته ألسنة أعداء الإسلام ، لأن الذى

نخشيه صلى الله عليه وسلم ، أن يقولوا تزوج مطلقة متبناه ، هو عين الحكمة التى أرادها الحكيم الخبير ، الذى هو أحق بأن يخشاه المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وإن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، زعيم أول العزم من الرسل ليترجم إلى عمل ما أوحى الله تعالى به إليه من زواجه من زينب الثيب ، فيبعث زيد بن حارثة إلى زينب من أجل هذا الغرض . وكما سدد رب العزة من قبل خطا حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، الذى امتثل أمره جل وعلا ، بأن خطب زينب البكر على مولاه زيد ، فقد أوحى إليه كذلك قرآناً يتلى سدد خطاه بأن أوحى إليه بالزواج من زينب بنت جحش . وبذلك تم القضاء عملياً على ظاهرة التبنى البغيضة .

وقد ختم الحديث فى هذا الموضوع بتقرير حقائق ثلاث ، تعتبر أولاها القاعدة التى انطلقت منها سلسلة الأحداث المتعلقة بالقضاء على ظاهرة التبنى ، وهذه القاعدة هى فى قوله تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ وأما الحقيقتان الأخريان فهما اثنتان تشكلان القسم التالى أو الموضوع الثانى فى هذه الجانب من البحث ، وهما : محمد رسول الله ، ومحمد خاتم النبيين ، ويشمل هاتين الحقيقتين قوله تعالى : ﴿ ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ .

إنه صلى الله عليه وسلم إذا لم يكن أبا أحد من رجال المؤمنين ، فإنه وراء ذلك رءوف ورحيم بكل المؤمنين . إنه صلى الله عليه وسلم

رسول الله وخاتم النبيين . قال تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾ ، وإن نعمتي الرسالة والنبوة أكبر نعم الله تعالى عليه صلى الله عليه وسلم . والآية الكريمة تبدأ بالإشارة إلى أكبر النعم على الإطلاق ، وهي نعمة الرسالة : ﴿ولكن رسول الله﴾ وبما أن كل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا ، ففي النص على كونه صلى الله عليه وسلم رسولا نص ضمني على كونه نبياً بطريق الأولى والأحرى . ثم تثني الآية الكريمة بذكر نعمة النبوة ، ولكن لا يجيء بشأنها الإشارة إلى نبويته صلى الله عليه وسلم ، فقد عرفنا أن النص على الرسالة نص ضمني على النبوة ، إنما يجيء الحديث عن نعمة النبوة من زاوية تجعل نعمة النبوة التي تقل عن نعمة الرسالة درجة ، في مرتبة نعمة الرسالة ، أكبر النعم على الإطلاق إن الآية الكريمة تنص على كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وبما أن الطريق إلى الرسالة ينبغي أن يمر بالنبوة ، ففي إغلاق باب النبوة إغلاق ضمني لباب الرسالة إلى يوم القيامة ، وهذا من باب الأولى . ولهذا جاء في الآية الكريمة القول : ﴿ وخاتم النبيين ﴾ وليس القول : وخاتم المرسلين ، لأن النص على الرسالة هنا وليس على النبوة غير قادر على نفي درجة النبوة الطريق المؤدي إلى درجة الرسالة . وبهذا التعبير يعتبر القول : ﴿ وخاتم النبيين ﴾ مظهراً من مظاهر إعجاز القرآن الكريم .

وبتدبرنا لمعاجم اللغة العربية ، ومن أنفعها فى هذا الشأن معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، الذى يجمع فى نسق مشتقات الأصل الواحد ويتبين المعنى المشترك لتلك الألفاظ يتبين أن لفظة خاتم فى الآية الكريمة ﴿ وخاتم النبيين ﴾ بمعنى آخر ، فمحمد صلى الله عليه وسلم آخر النبيين إلى يوم القيامة ، فلا نبى بعد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، بنص القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف .

ولا علاقة للفظ خاتم فى الآية الكريمة ، بلفظ خاتم ، دليلا على ما يوضع فى الأصبع من معادن ، برغم كون لفظة خاتم الحسية تحمل فى طياتها معنى النهاية والختم ، لأن الخاتم إنما أطلق عليه هذا اللفظ ، لأنه يستعمل آنذاك من قبل الأميين كثيراً فى مكاتباتهم التى يختم بها فى ختام المكاتبات . وبما أن هذا الخاتم ينبغى أن يكون قريب التناول وفى مكان أمين ، وأقرب مكان وأنسب مكان هو الأصبع ، لذا وضع فى الأصبع من أجل الختم به فى ختام المكاتبات .

وإذا كان لفظ « خاتم » فى الآية الكريمة ، لا علاقة له بخاتم الأصبع ، برغم المعنى المشترك بينهما بمعنى الختم والنهاية ، فمن باب أولى ألا يكون ثمة علاقة مطلقاً بالمعانى المستحدثة التى اكتسبها لفظ « خاتم » بسبب التحول فى وظيفته ، إذ أصبح يتخذ زينة وحلية ، بأكثر من الختم به فى المكاتبات . وبهذا يتبين أن

الآية الكريمة الأربعين من سورة الأحزاب تتضمن معنيين اثنين على درجة كبيرة من التساوى فى الأهمية العظمى وهما محمد رسول الله ، ومحمد خاتم النبيين . قال تعالى : ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما﴾.

وبالإضافة إلى الموضوع السابق الرئيسى الذى تضمنه البحث ، ثمة موضوعات أخرى هذا موجزها .

النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم

إن المصطفى صلى الله عليه وسلم ليس أبا أحد من رجال المؤمنين ، وإن له صلى الله عليه وسلم من المنزلة ما ليس للأب . فمن الصفات التي خص الله تعالى بها رسوله الكريم أنه عليه الصلاة والسلام أولى بالمؤمنين من أنفسهم . جاء في الآية الكريمة السادسة قوله تعالى : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك في الكتاب مسطوراً ﴾ والملاحظ أن أزواجه صلى الله عليه وسلم قد نلن بفضل الله تعالى منزلة الأمومة من المؤمنين ، فلهن بعض أحكام الأمهات من وجوب تعظيمهن واحترامهن وتحريم نكاحهن . وتأتي هذه المنزلة في السورة التي تبين وجه الحق في حكم الجاهلية الجائر ، حينما تنزل الزوجة المظاهر منها منزلة الأم ، لأن للأم منزلة خاصة بها . وإن زوجات المصطفى صلى الله عليه وسلم ينلن هذه المنزلة . وقد يتبادر إلى الذهن منزلة الوالد في حقه صلى الله عليه وسلم مقابل نيل زوجاته صلى الله عليه وسلم منزلة الوالدة . والحقيقة أن السورة الكريمة تنزله صلى الله عليه وسلم من المؤمنين أعلى منزلة يمكن أن ينالها مخلوق ، متجاوزة منزلة الوالد ، بل منزلة نفس الإنسان لديه . إن النبي صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من

أنفسهم ، فينبغي أن يكون أحب إليهم من أنفسهم ، وأن يكون هواهم تبعاً لما جاء به صلى الله عليه وسلم . ولا شك أن هذه أرفع منزلة يمكن أن ينالها عبد من عباد الله تعالى . قال عز من قائل :

﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم . . . . ﴾

لكم فى رسول الله أسوة حسنة

نصت الآية الكريمة الحادية والعشرون على كونه صلى الله عليه وسلم هو الأسوة الحسنة للمؤمنين . قال تعالى : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ وثمة أسباب جعلت فى الإمكان اتخاذ كل مسلم لله رب العالمين من رسول الله أسوة حسنة ، دون سائر الأنبياء والمرسلين . وهذه بعض الأسباب :

أولا : حفظ الله تعالى كتابه العزيز . وقد تحدث القرآن الكريم عن بعض جوانب سيرة الرسول الكريم . وفى حفظ الله تعالى كتابه العزيز ، حفظ ضمنى لسيرة النبى صلى الله عليه وسلم .

ثانيا : عناية السلف الصالح بالسنة النبوية المطهرة مذهلة . والسنة تشمل أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته وصفاته . وقد تسنى بسبب ذلك اتخاذه صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة والمعروف أن السنة المطهرة مبنية للقرآن الكريم .

ثالثا : انفرد صلى الله عليه وسلم بكون الذين آمنوا به ابتداء هم أهله وأقاربه وذووه .

رابعا : أذن المصطفى صلى الله عليه وسلم لكل عباد الله تعالى أن يرووا كل ما وعوا منه من قول أو فعل . ويكفى أن يقال إن

زهاء ثلث هذا الدين قد جاءنا عن طريق أزواجه صلى الله عليه وسلم . وكى يثبت انفراد سيرته صلى الله علية وسلم بإمكان اتخاذها أسوة حسنة ، فى الإمكان أن تتحول فى هذا الميدان إلى سيرة أشهر رسل الله تعالى السابقين ، إنه عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام . إنه من الثابت لدى العلماء أنه يستحيل تأليف كتاب عن سيرة عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام . وفى المقابل نحن نعرف كل كبيرة وصغيرة عن حياة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

المصطفى صلى الله عليه وسلم سراج منير

يتصل باتخاذه صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة أن سورة الأحزاب تصفه صلى الله عليه وسلم بالسراج المنير . جاء فى الآيتين الكريمتين الخامسة والأربعين والسادسة والأربعين قوله تعالى : ﴿ ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾ فالآيتان الكريمتان تخلعان عليه صلى الله عليه وسلم إضافة إلى نعمتى النبوة والرسالة ستا من الأسماء والصفات . وقد لفت انتباهنا على جهة الخصوص نعت المصطفى صلى الله عليه وسلم بكونه سراجا منيرا . وبما أن القرآن الكريم قد راعى طرائق العرب فى التعبير فقد تأملنا حديث القرآن الكريم عن كل من لفظ السراج ولفظ المنير . وقد تبين أن لفظ سراج يطلق على الشمس ، والمعروف أنها مصدر للطاقة ، وأن هذا المصدر يطلق على مايصدر منه لفظ «ضياء» فى حين يطلق اللفظ «منير» على القمر . والمعروف أنه ليس مصدرا للطاقة . ومن الأمثلة على ذلك الآية الخامسة من سورة يونس . قال تعالى : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ فلماذا وصف المصطفى صلى الله عليه وسلم بأنه سراج وبأنه منير . وليس بأنه سراج مضىء وليس بأنه قمر منير ؟ وهنا نتبين مظهرا من مظاهر إعجاز القرآن الكريم . إن الآية الكريمة تجمع له صلى الله عليه وسلم خير مافى كل من الشمس والقمر . إنه صلى الله عليه وسلم من حيث

الأسوة الحسنة بمثابة الشمس مصدر الحرارة والدفء فى هذا الوجود ، والتى لا يستغنى عنها مخلوق واحد فوق هذه الكرة الأرضية . وإنه صلى الله عليه وسلم من حيث تحقق النفع المطلق ، دون أدنى أذى ، بمثابة نور القمر الذى يستطيع كل مخلوق أن يتملى جماله وينتفع بنوره . إن هذه هى طبيعة نور المصطفى صلى الله عليه وسلم السراج المنير والأسوة الحسنة . قال تعالى : ﴿ ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾ .

يا أيها الرسول يا أيها النبي

مما خص به صلى الله عليه وسلم فى القرآن بين سائر رسل الله تعالى وأنبيائه صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين أنه يخاطب بكونه الرسول والنبي فى حين يخاطب سائر الأنبياء والمرسلين بأسمائهم . بل إن الآية الكريمة الأربعين من سورة الأحزاب تنص على كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وبذلك هو خاتم المرسلين بطريق الأولى والأحرى ، لأن النبوة باب مؤد إلى الرسالة . وفى إغلاق باب النبوة إغلاق ضمنى لباب الرسالة . يضاف إلى ذلك أنه صلى الله عليه وسلم يذكر ضمن أولى العزم من الرسل الخمسة وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين ، ليس باعتباره واحدا منهم فقط ، بل باعتباره أشدهم عزما حيث يبدأ السياق بذكره صلى الله عليه وسلم . جاء فى الآية الكريمة السابعة من سورة الأحزاب قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾ . إن الأنبياء يذكرون عموما فى القول : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ﴾ ثم يعطف الخاص على العام ابتداء به صلى الله عليه وسلم ، دليلا على كونه زعيم أولى العزم من الرسل ، أصحاب الشرائع والكتب وأئمة الأمم .

الله وملائكته يصلون على النبي

ومما خص به صلى الله عليه وسلم ، كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة السادسة والخمسون من سورة الأحزاب ، أن الله تعالى وملائكته الكرام يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم . فالمطلوب من المؤمنين أن يصلوا عليه ويسلموا تسليما .

والصلاة من الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم الثناء والرحمة . ومن الملائكة الدعاء والتبريك والاستغفار . ويلاحظ أن المطلوب من المؤمنين عدم الاكتفاء بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، ولكن أن يسلموا عليه تسليما يليق به عليه الصلاة والسلام . والمراد بالصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ما جاء فى التشهد الذى كان يعلمه صلى الله عليه وسلم الصحابة كما كان يعلمهم السورة من القرآن الكريم . أما الصلاة فالقول : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد . وأما السلام فالقول : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا . والحمد لله رب العالمين .

الخاتمـــــــة

فى الصفحات السابقة درسنا القضايا الرئيسية فى الكتاب والتى يشملها العنوان المأخوذ من الآية الكريمة الأربعين من سورة الأحزاب قال تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾ . كما درسنا القضايا الفرعية الأخرى المتعلقة بفضل الله تعالى على رسوله الكريم والتى عرضت لها سورة الأحزاب ، وهى على النحو التالى : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم — لكم فى رسول الله أسوة حسنة — المصطفى صلى الله عليه وسلم سراج منير — ياأيها الرسول ياأيها النبى — الله وملائكته يصلون على النبى » .

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله منا وأن يأخذ بأيدينا إلى أقوم سبيل . إنه سميع مجيب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا . والحمد لله رب العالمين .

مكة المكرمة

يوم الجمعة ١٤٠٢/١١/٢٢هـ

الموافق ١٩٨٢/٩/١٠ م .

كتبه الفقير إلى عفو ربه

د . حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية

كلية اللغة العربية — جامعة أم القرى بمكة المكرمة

فهرست المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن فارس (أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا) مقاييس اللغة تحقيق عبد السلام محمد هارون . الطبعة الثانية القاهرة ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ .

ابن القيم (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر) طريق الهجرتين وباب السعادتين دار الكتاب العربي بيروت — بدون تاريخ .

ابن كثير (إسماعيل بن كثير) تفسير القرآن العظيم . دار إحياء التراث العربي بيروت ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٩م .

ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم) لسان العرب بيروت ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م .

البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) الصحيح كتاب الشعب ١٣٧٨ هـ دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٧٥ م .

الزركلي (خير الدين) الأعلام . الطبعة الخامسة . دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٠ م .

الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر) الكشاف ، حلبي القاهرة ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م .

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) لباب النقول فى أسباب النزول الطبعة الأولى ١٩٧٨ بيروت .

عياض (القاضى أبو الفضل عياض اليعصبى) الشفا بتعريف حقوق المصطفى مصور فى بيروت عن المكتبة التجارية الكبرى بمصر . بدون تاريخ.

القرطبى (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى) الجامع لأحكام القرآن . كتاب الشعب بمصر بدون تاريخ .

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥ — ٦
ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين	٧ — ٩
ما كان محمد أبا أحد من رجالكم	٩ — ٣٠
محمد رسول الله وخاتم النبيين	٣١ — ٤٦
النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم	٤٧ — ٤٩
لكم فى رسول الله أسوة حسنة	٥٠ — ٥٥
المصطفى صلى الله عليه وسلم سراج منير	٥٦ — ٥٩
ياأيها الرسول يا أيها النبي	٦٠ — ٦٣
الله وملائكته يصلون على النبي	٦٤ — ٦٨
موجز البحث	٦٩ — ٨٦
الخاتمة	٨٧
فهرست المصادر والمراجع	٨٩

مطبعة التقدم
٤٨ شارع شوارى بالمنيرة - القاهرة
تليفون ٨٤١٤٢١

رقم الإيداع ١٩٨٣/٤٦٣٧